

حياة أعظم الرسل

عظمة محمد طول حياته

عظمة محمد طول حياته

كَانَ مُحَمَّدٌ مَثَلًا نَادِرًا فِي طُفُولَتِهِ ،
طَاهِرًا فِي شَبَابِهِ ، زَاهِدًا فِي حَيَاتِهِ . وَكَانَ
أَعْدَلَ الْقَضَاةِ فِي قَضَائِهِ ، وَأَشَجَعَ الْقَوَادِ فِي
دِفَاعِهِ عَنِ الْحَقِّ ، وَأَحْسَنَ مَثِلٍ لِلْمُصْلِحِينَ
وَالْمُرِّيِّينَ .

إِخْتَصَّهُ اللَّهُ بِكُلِّ خُلُقٍ نَبِيلٍ ، وَأَدَّبَهُ
فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهُ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا . فَقَدْ حَرَسَهُ

بِعِنَايَتِهِ ، وَحَفِظَهُ بِرِعَايَتِهِ ، وَأَمَرَ الْعَالَمَ
بِطَاعَتِهِ ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ بَعْدَ طَاعَتِهِ . « مَنْ
يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » . وَلَمْ يَسْجُدْ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَنَمٍ مِنَ الْأَصْنَامِ ،
وَلَمْ يَشْتَرِكْ فِي عِيدٍ مِنْ أَعْيَادِهَا .

كَانَ مُحَمَّدٌ مَثَلًا كَامِلًا لِلْإِنْسَانِ الْكَامِلِ .
لَهُ شَخْصِيَّةٌ قَوِيَّةٌ مَحْبُوبَةٌ ، لَا يَقْرُبُ مِنْهُ أَحَدٌ
فِي كَمَالِهِ وَعَظَمَتِهِ ، وَصِدْقِهِ وَأَمَانَتِهِ ،
وَزُهْدِهِ وَعِفَّتِهِ . اعْتَرَفَ لَهُ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ
بِنَفْسِهِ الْعَالِيَةِ ، وَقَلْبِهِ الطَّاهِرِ ، وَعَقْلِهِ
الْمُفَكِّرِ ، وَذَكَائِهِ الْفَائِقِ ، وَإِرَادَتِهِ الْقَوِيَّةِ ،

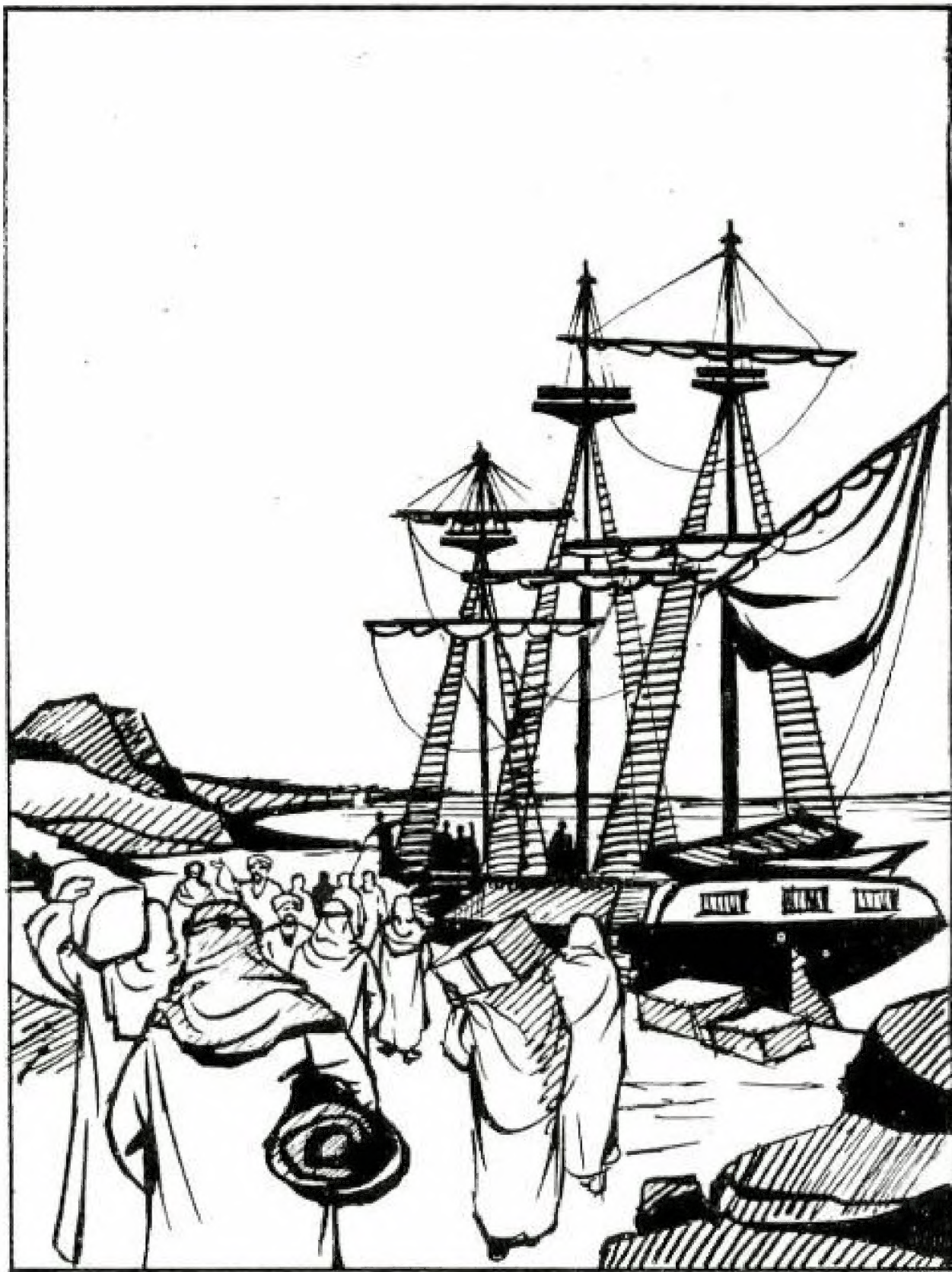
فَكَانَ خَيْرَ مَثَلٍ لِّلْعَالَمِ كُلِّهِ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي
رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ (قُدْوَةٌ) حَسَنَةٌ » . خَلَقَهُ
اللَّهُ عَظِيمًا ، فَكَانَ عَظِيمًا مُنْذُ وَلَادَتِهِ ،
عَظِيمًا وَهُوَ صَبِيٌّ ، عَظِيمًا وَهُوَ شَابٌّ ،
عَظِيمًا وَهُوَ رَجُلٌ ، عَظِيمًا وَهُوَ كَبِيرُ السِّنِّ ،
عَظِيمًا قَبْلَ الرُّسَالَةِ ، عَظِيمًا بَعْدَهَا .

خَلَقَهُ اللَّهُ عَظِيمًا لِيُعِدَّهُ لِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ ،
حِينَمَا يَبْلُغُ مِنَ الْعُمُرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، فَأَدَّاهَا
أَحْسَنَ أَدَاءٍ . وَأَحْسَنُ دَلِيلٍ عَلَى عَظَمَةِ
الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ أَنْشَأَ أَحْسَنَ أُمَّةٍ لِلنَّاسِ فِي

أَقْلَ مُدَّةٍ .

مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ
سَنَةً يَدْعُو أَهْلَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا
لَهُ ، وَآذَوْهُ كُلَّ الْإِيذَاءِ ، وَعَذَّبُوا أَصْحَابَهُ
بِكُلِّ أَنْوَاعِ التَّعْذِيبِ ، وَقَدْ صَبَرَ رَسُولُ اللَّهِ
كُلَّ الصَّبْرِ ، وَسَارَ الْإِسْلَامُ بِمَكَّةَ سَيْرًا
بَطِيئًا ، فَأَمَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِالْهَجْرَةِ إِلَى
الْمَدِينَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَيْهَا ، فَاِنْتَشَرَ الْإِسْلَامُ
اِنْتِشَارًا سَرِيعًا ، فِي جَمِيعِ جِهَاتِ الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ، وَاسْتَمَرَ فِي دَعْوَتِهِ حَتَّى نَصَرَهُ اللَّهُ
نَصْرًا عَزِيزًا ، وَانْتَشَرَ الْإِسْلَامُ مِنَ الْجَزِيرَةِ



أَصْحَابُ الرِّسُولِ يَرْكَبُونَ السَّفِينَةَ لِلْهَجْرَةِ

الْعَرَبِيَّةُ إِلَى الْأُمَمِ الْأُخْرَى ، بِسُرْعَةٍ لَا نَظِيرَ
لَهَا فِي التَّارِيخِ .

وَبِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ،
وَالْمُنَاقَشَةِ بِالنِّبْيِ هِيَ أَحْسَنُ — دَخَلَ النَّاسُ
فِي دِينِ اللَّهِ — وَهُوَ الْإِسْلَامُ — جَمَاعَاتٍ
جَمَاعَاتٍ ، وَسَارَ الْإِسْلَامُ سَيْرًا سَرِيعًا .
ظَهَرَ مُحَمَّدٌ بَيْنَ الْعَرَبِ وَكَانُوا فِي جَهْلٍ
تَامٍّ ، وَتَنَازَعَ مُسْتَمِرٌّ ، وَكَانَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ فِي
خِلَافٍ دَائِمٍ مَعَ جَارَاتِهَا مِنَ الْقَبَائِلِ . فَكَوَّنَ
مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ أُمَّةً عَظِيمَةً ، وَأَسَّسَ دَوْلَةً
وَاسِعَةً ، وَأَقَامَ عَالَمًا جَدِيدًا ، وَأَنْشَأَ جِيلًا

قَوِيًّا ، عَالِي النَّفْسِ ، شَدِيدُ الْإِيمَانِ ، طَاهِرُ
الْخُلُقِ ، عَظِيمُ الْأَمَانَةِ ، خَاضِعًا لِلْحَقِّ ،
مُتَمَسِّكًا بِالْعَدَالَةِ . وَهِيَ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ ،
لَمْ يَقُمْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ وَلَا مِنْ بَعْدِهِ .
فَعَظَمَتُهُ عَلَيْهِ صَلَواتُ اللَّهِ تَظْهَرُ فِي أَنَّهُ كَوْنُ أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ
— هِيَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ — مِنْ قَبَائِلِ
مُتَفَرِّقَةٍ مُتَنَازِعَةٍ ، فَوَحَّدَ بَيْنَهَا ، وَسَوَّى بَيْنَ
غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا ، وَجَعَلَهَا أُمَّةً وَاحِدَةً ، قَوِيَّةً
مُتَعَاوِنَةً ، يَخَافُهَا غَيْرُهَا مِنَ الْأُمَمِ . وَأَنْشَأَ
دَوْلَةً إِسْلَامِيَّةً مُؤَمِّنَةً ، قَوِيَّةَ الصِّلَةِ بِاللَّهِ ،
تَكُونَتْ مِنْهَا الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَظِيمَةُ .

كَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ الْمَثَلُ الْعَالِي فِي
أَخْلَاقِهِ وَأَفْعَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ .

كَانَ يَدْعُو إِلَى الْمَحَبَّةِ الرُّوحِيَّةِ ،
وَالْأُخُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، قَائِلًا : « لَا يُؤْمِنُ
أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ
لِنَفْسِهِ » .

وَفِي خُطْبَتِهِ الْأُولَى بِالْمَدِينَةِ نَادَى
بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، وَالْعَطْفِ عَلَى
الْمَسَاكِينِ ، وَقَالَ : « مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقِيَ
(يَحْفَظَ) وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ بِشِقَّةٍ (بِنِصْفٍ)
مِنْ تَمْرٍ (بَلَح) فَلْيَفْعَلْ . وَمَنْ لَمْ يَجِدْ

فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ؛ فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى (تُثَابُ)
 الْحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا » . وَقَدْ اخْتَارَهُ اللَّهُ
 لِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ، فَكَانَ الرَّسُولُ الْأَمِينُ فِي
 أَدَائِهَا ، « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » ، أَيْ وَمَا
 يَنْطِقُ بِالْقُرْآنِ عَنْ مَيْلٍ وَشَهْوَةٍ فِي نَفْسِهِ .
 وَقَدْ عُرِفَ بِالصِّدْقِ فِي قَوْلِهِ ، وَالْأَمَانَةِ فِي
 عَمَلِهِ ، حَتَّى سُمِّيَ الصَّادِقَ الْأَمِينُ .

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يُفَكِّرُ فِي سُلْطَةٍ أَوْ
 رِيَاسَةٍ ، مُتَوَاضِعًا كُلَّ التَّوَاضُعِ فِي غَيْرِ
 ضَعْفٍ ، كَثِيرَ الْعَطْفِ عَلَى كُلِّ فَقِيرٍ أَوْ
 مِسْكِينٍ ، أَوْ عَبْدٍ رَقِيقٍ (غَيْرِ حُرٍّ) . وَإِذَا

اعْتَذَرَ مُخْطِئًا عَنْ خَطِيئَةٍ قَبْلَ اعْتِذَارِهِ . وَإِذَا
طَلَبَ مِنْهُ مُحْتَاجٌ أَوْ ضَعِيفٌ حَاجَةً قَضَاهَا لَهُ ،
وَفَضَّلَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ . وَإِذَا كَانَ فِي
مَنْزِلِهِ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يُرْقِعَ ثَوْبَهُ ، وَيَحْلُبَ نَعْجَتَهُ ،
وَيَرْبُطَ جَمَلَهُ بِنَفْسِهِ .

وَتَظْهَرُ عَظَمَتُهُ فِي عَقْلِهِ الْمُنَظَّمِ ،
وَرُجُولَتِهِ الْكَامِلَةِ ، وَشَجَاعَتِهِ النَّادِرَةِ ،
وَلِسَانِهِ الْفَصِيحِ ، وَكَلَامِهِ الْعَذْبِ ،
وَتَفْكِيرِهِ الْبَعِيدِ ، وَتَدْبِيرِهِ الْمُتَقِنِ ، وَذَكَائِهِ
الْفَائِقِ ، وَقَلْبِهِ الرَّحِيمِ ، وَإِحْسَاسِهِ النَّبِيلِ ،
وَعَفْوِهِ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ .

كَانَ الرَّسُولُ الْعَظِيمُ الْمُصْلِحَ الْأَكْبَرَ ،
الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ بَيْنَ الْمُصْلِحِينَ . كَانَ الْمَثَلُ
الْعَالِي فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَمَا يَفْعَلُ .

وَقَدْ أَتَمَّ الرَّسُولُ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يُدْهِشُ
الْعُقُولَ . فَلَمْ يَرَ التَّارِيخُ مُصْلِحًا أَيْقَظَ
النُّفُوسَ ، وَأَحْيَا الْأَخْلَاقَ ، وَرَفَعَ شَأْنَ
الْفَضِيلَةِ فِي زَمَنِ قَصِيرٍ ، كَمَا فَعَلَ مُحَمَّدٌ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَا عَجَبَ ؛ فَمُحَمَّدٌ صَنَعَ أُمَّةً

مُتَعَاوِنَةً عَظِيمَةً مَلَأَ ذِكْرُهَا التَّارِيخَ . وَأَحْيَا
قَوْمًا كَانُوا يَعِيشُونَ فِي الصَّحَرَاءِ عِدَّةَ
قُرُونٍ ، وَلَا يَهْتَمُّ بِهِمْ أَحَدٌ ، وَكَانُوا جُهَلَاءَ

لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ . فَلَمَّا جَاءَهُمُ النَّبِيُّ
الْعَرَبِيُّ صَارُوا قِبْلَةَ الْأَنْظَارِ فِي الْعُلُومِ
وَالْآدَابِ ، وَمَلَأُوا الْأَرْضَ عِلْمًا وَنُورًا
وَمَعْرِفَةً ، وَأَدْهَشُوا الْأُمَمَ الْقَدِيمَةَ فِي
الْحَضَارَةِ وَالْمَدَنِيَّةِ ، وَأَصْبَحُوا كَثِيرِينَ بَعْدَ
أَنْ كَانُوا قَلِيلِينَ ، أَقْوِيَاءَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضُعَفَاءَ .
وَلَمْ تَمْضِ مِائَةُ سَنَةٍ حَتَّى اسْتَضَاءَتْ أَطْرَافُ
الْأَرْضِ بِعُقُولِ الْمُسْلِمِينَ وَعُلُومِهِمْ ،
وَأَدْبَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ .



عَظَمَةُ الرَّسُولِ فِي الْقَضَاءِ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ :

تَظْهَرُ عَظَمَةُ الرَّسُولِ فِي أَنَّهُ قَامَ وَحْدَهُ
يَدْعُو قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ ، وَتَرَكِ
عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ . وَفِي بَدْءِ الدَّعْوَةِ وَقَفَ
وَحْدَهُ أَمَامَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ ، وَأَمَامَ الْجَزِيرَةِ
الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ أَمَامَ الْعَالَمِ كُلِّهِ يُنَادِي بِعِبَادَةِ اللَّهِ
وَحْدَهُ ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : « قُلْ يَا أَيُّهَا
الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ .
وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ

دِينِ » . فَانْتَصَرَ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَنَشَرَ دِينَ
اللَّهِ ، وَبَلَغَ رِسَالَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى الْعَالَمِ
كُلِّهِ . وَأَخْرَجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،
وَرَفَعَ رَايَةَ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَمْلِكُ
سُلْطَانَ الْمَالِ ، وَلَا جَاهَ الْمُلُوكِ ، وَلَا يَقُولُ
إِنَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَلَا يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ .
وَهَذِهِ هِيَ الْعَظَمَةُ الْمُحَمَّدِيَّةُ .